المثل الأعلى

بين وأد الشهوة وإشباعها

عرض ومناقشة

بقلم

الدكتور توفيق الطويل

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

اتجهت الفلسفة الخلقية من قديم الزمان إلى وضع « مثل أعلى » يسير بمقتضاه السلوك الإنسانى ، وعرفت البشرية منذ ماضيها السحيق هذا « المثال » فى صور شتى تشترك فى خصائص وتختلف فى أخرى ، ومع ما بينها من وجوه التباين تجرى فى تيارين متضادين ، يبدو أحدهما فى إقامة المثل الأخلاقى على وأد الشهوات وقمع الميول الفطرية ، ويتجلى ثانيهما فى إشباع الأهواء والرغبات — حتى ولو كان الإشباع على حساب المألوف من مبادئ الأخلاق ومثلها العليا !

أثارت هذه المشكلة بين الأخلاقيين جدلا عنيفاً ، إذ اختلفوا فيما إذا كان الواجب الأخلاقى يقتضى إقرار النفس وتوكيدها[١] أم يستلزم إنكارها وقمع رغباتها وإغفال مطالبها[٢] ، أى أن النزاع كان قائماً بين الأثرة والإيثار Egoism & Altruism فمن الأخلاقيين من مكن للمثل الأعلى على أساس الأنانية وما تتضمن من مطالب ورغبات ، ومنهم من أقر هذا المثال على أساس من الغيرية وما تقتضيه من ألوان التضحية فى سبيل مبدأ يسمو على كل اعتبار ذاتى أو هوى شخصى[٣].

وسنعرض هذين الاتجاهين فى صور خاطفة تشير إليهما وتوضح دلالة كل منهما فى أشهر المذاهب التى نادت به ، فإذا انتهينا من هذا العرض السريع عقبنا بمناقشة هاتين النزعتين ، عسى أن نضىء ما غمض فى آفاقهما ، وتيسر الكشف عما فيهما من وجوه الحق أو الباطل :

---

(١) Self-repression, negation, denial, abnegation, Sacrifice

(٢) Self-assertion, affirmation

(٣) قارن G.A. Johnston, Intr. to Ethics p. 191-92

إنكار الذات :

أقامت العقائد الدينية القديمة المثل الأعلى على إنكار الذات بكل ما تضمنت من ميول فطرية وعواطف مكتسبة ، وإلى هذا اتجهت فلسفة الأخلاق عند جمهرة باحثيها منذ الماضى السحيق ، بل لا يزال لهذا الاتجاه دعاة فى عصرنا الحديث ، اجتمعت كلمتهم على أن « الأخلاقية » Morality تقتضى أن يجرد الإنسان نفسه من علائق جسمه — كما يقول الصوفية — وأن يطرح عنه أهواءه ويستبعد من حياته مصالحه .

بدت هذه النظرة فى العقيدة البوذية Buddhism التى قررت أن السعادة التى ينشدها الإنسان مثلا أعلى لا تستقيم مع قيام رغبة أو هوى يضطرم بين جوانحه ، فلا سبيل إلى تحقيق السعادة إلا بضبط النفس والسيطرة على شهواتها ، والحيلولة دون إشباعها حتى يصبح الإنسان وكأنه روح من غير جسم !

وتظهر هذه النزعة نفسها فى الكثير من مذاهب الديانة المسيحية ، كالكاثوليكية الرومانية وشيعة الطهريين Puritanism ودعاة الرهبانية التى تقوم على إنكار الذات أو التنفيس عن مكنوناتها المضغوطة بصنع الجميل .

بل يلاحظ هذا الإنكار واضحاً فى النزعات الهندية التى لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر ، وحسبنا أن نشير إلى مذهب « غاندى » Mahatma Gandhi فى محاربة شهوات الجسم وأهواء النفس ، فقد هاجم تعقيم النساء لأنه يجعل الشهوة هدف العلاقة الجنسية ، ولم يبح العلاقة الجنسية بين الأزواج إلا متى كانت من أجل النسل ! ويشر بمبدأ « الأهمسا » Ahimsa (الذى كان من أقدم مبادئ الديانة الهندوسية) وبه أوجب على الإنسان مغالبة أهوائه ونزواته فى غير زهو ، والكف عن استخدام العنف شعوراً بقوة النفس — لا استخذاء ولا عجزاً عن المقاومة ، وراض النفس على احتمال الظلم يوقعه به الأشرار ، فيستقبل شرهم بالرضا المقرون بالتكفير وطلب الغفران ! !

واتجه إلى إنكار الذات الكثير من مذاهب الفلسفة الخلقية منذ أقدم العصور ، فاعتقد الرواقية أن ما نسميه بالهوى حالة مرضية من حالات النفس الناطقة تتضمن حكماً خاطئاً بصدد ما ينبغى طلبه أو الإعراض عنه ، والحكيم الصادق عندهم هو من يستطيع أن يتحرر من كل خطأ يصدر عن هوى ، إنه يشعر بنداء الشهوة الحسية لا محالة ، لأنه ليس كائناً مجرداً من كل انفعال ، ولكن الأهواء التى تتحكم فى عقول البشر لا تستطيع أن تؤثر فيه ، ومن هنا

اتجه الرواقية إلى الزهد فى اللذات ، وأرجعوا الشر إلى الهوى وردوا الخير إلى العقل أو الواجب . فالأخلاقية إنما تقوم على الخلو من الهوى وعدم الاكتراث بالشهوات والعيش بمقتضى الطبيعة (أى العقل) . . . إلى آخر ما هو معروف عن نزعتهم(١).

وتجلت هذه الظاهرة فى نزعة « الكلبية » Cynicism الذين صرحوا بأن خير الإنسان لا يقوم فى طلب اللذة بل فى الاستخفاف بها والاعتقاد بتفاهة رغبات الإنسان ومقاصده ، وقد قيل إن إمامهم Antisthenes قال إن الابتلاء بالجنون خير من الاستسلام للذات ! فاتجهت دعوتهم إلى وأد الشهوات وقمع الرغبات لأنها تفضى إلى إثارة الضيق والقلق من أجل شىء يبدو عند الحصول عليه معدوم القيمة(٢) .

وكان للاتجاه صداه عند بعض المحدثين من فلاسفة الأخلاق ، وبلغ الاتجاه ذروته فى مذهب « كانت » Kant الذى ضاق بكل مذهب أخلاقى يقيم الخيرية على لذة أو منفعة أو هوى ، وصرح بأن « الواجب » أمر مطلق Categorical Imperative يصدر عن العقل العملى وحده ، غير متأثر بالميول أو الأهواء أو العواطف — ما كان منها نبيلا أو خسيساً ! ! إنه يشك فى إمكان قيام فضيلة يكون الباعث عليها ميلا أو عاطفة ! بل إن الفعل قد يطابق فى نتائجه وآثاره مبدأ الواجب ، ولا يكون أخلاقيا متى صدر عن ميل أو مصلحة(٣).

وفى ضوء هذا يطالب « كانت » الناس بأن يفهموا آيات الكتاب المقدس التى تأمر المؤمنين بحب الأعداء ، لأن الحب الذى يصدر عن ميل أو هوى لا يحتاج إلى أمر . فالحب الذى يستلزمه الواجب الأخلاقى هو الذى يصدر عن نفور طبيعى(٤) . ويعترف « كانت » بأن الواجب نفسه وجدان أوميل ، ولكن

---

(١) قارن H. Sidgwick, Outline Hist. of Ethics, ch. XIV. (فى ترجمته العربية لتوفيق الطويل (بالاشتراك) « المجمل فى تاريخ علم الأخلاق » ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٣) Kant, Groundwork of the Metaphysic of Morals, Eng. Trans. by H.J. Paton 1947 p. 65-67

(٤) نفس المصدر ص ٦٧ ويقصد « كانت » فيما يظهر عظة المسيح لحواريه على الجبل (انجيل متى — إصحاح ٥ و ٦) وفيها يقول « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » ولكن الواقع أن المسيحية سبقت مذاهب الفلسفة الخلقية فى أنها جعلت الوجدان (المحبة) باعثاً على الفعل الخلق ، وكان الباعث قبلها (فى الفلسفة اليونانية) هو العقل وحده ، ثم جاء فى القرن الثامن عشر شافتسبرى Shaftesbury وغيره وجعلوا الوجدان باعثاً على الأفعال الخلقية ، فتابعوا المسيحية فى هذا مع إنكارهم جزاءاتها (الجنة والنار) إغراء للفعل الخلق .

الإنسان لا يتلقاه عن تأثير خارجي ، فهو يصدر عن تقدير عقلي محض ؛ وينتهي « كانت » إلى مطالبة الإنسان بأن يحرم على نفسه إتيان فعل لا يستطيع بإرادته أن يجعله قاعدة عامة للناس في كل زمان ومكان[1] ؛ فجعل الواجب مقصوراً على مسايرة الجانب الناطق في طبيعة البشر ، أما ما عداه من جوانب الطبيعة البشرية — الحيوانية والعاطفية — فناصبته العداء ومقاومته حتى يتلاشى من طبيعة الإنسان ضرورة تقتضيها مبادئ الأخلاق !

وفي ضوء هذا الاتجاه عرف البعض الخُلق بأنه ميل نفسي يتحكم في الغرائز ويحول دون تحققها وفقاً لمبدأ منظم لتلك الغرائز[2] ، فاعتبرت هذه الميول الفطرية شراً ينبغي مقاومته .

وإلى هذا الاتجاه ينزع الرأي العام فينتصر لنزعة هؤلاء الأخلاقيين ، لأن الناس يعتقدون في العادة أن إنكار الذات ، أو التضحية بها هو الشاهد العدل على نبل الحياة وسموها ، فالأخلاق عندهم تقوم على الغيرية أو الإيثار ولا تستقيم مع الأنانية أو الأثرة ، والموقف الخلقي لا ينشأ إلا حين يصطرع العقل مع الهوى ، ويتنازع الواجب مع الشهوة ، وتكون الغلبة لصوت الواجب على نداء النزوة والهوى ، وإذا زاول الإنسان هذه الحياة الكريمة التي تخضع فيها أهواؤه وشهواته لمنطق عقله ، انتهى آخر الأمر بأن يكون فاضلا عفاً خيراً من غير صراع يقوم بين الواجب والهوى ، لأن مزاولة الحياة الفاضلة تنتهي بإخماد صوت الشهوة ، وبذلك يصبح الإنسان وكأنه روح من غير جسم !

هذا هو مجمل الاتجاه إلى إقامة الأخلاقية على قمع الشهوة وإنكار الذات — في العقائد الدينية ومذاهب الفلسفة الخلقية وتصور الرأي العام بين الناس بوجه عام .

توكيد الذات :

إلى جانب هذا الاتجاه في فهم المثل الأعلى عرف تاريخ الأخلاق اتجاهاً آخر ، ذهب فيه أصحابه إلى أن أسمى غاية للحياة تقوم في تقوية النفس وتوكيدها[3] ، لا في إنكارها ومقاومة حاجاتها وإعاقة إشباع مطالبها ؛ ومنذ الماضي السحيق وُجد مفكرون تطرفوا في نزعتهم الفردية يؤكدونها نظرياً وعملياً ، ويعلنون حقهم

(١) المصدر السالف ص ٦٩ — ٧١ .

(٢) قارن A. Roback, The Psychology of Character p. 450

(٣) Self-development, assertion

فى توكيدها ولو كان هذا على حساب الآخرين ؛ ومن هنا نبتت الأثرة أساساً لكثير من مذاهب الأخلاق ، واختفى الإيثار والتضحية والغيرية وما إليها مثلا عليا ينشدها الانسان، ويسير بمقتضاها سلوكه ، وقد بدت الأنانية واللذة الفردية فى النزعة القورينائية قديماً ، وفى مذهب هوبز Hobbes وهلفتيوس Helvetius حديثاً ، بل بدا الاتجاه إلى توكيد الذات فى أروع صورة — عرفها تاريخ الأخلاق — عند نيتشه F. Nietzsche .

فأما القورينائية Cyrenaic School فقد أقاموا الأخلاق على وجدان اللذة والألم ، واعتبروا اللذة خيراً أقصى ومعياراً تقاس به جميع القيم ؛ ويرى أمامهم أرستبوس Aristippus أن الحياة آنات لكل منها لذته ، ومن هنا كان إثباته للذة اللحظة التى هو فيها ، فالشهوة صوت الطبيعة فلا ينبغى أن نستحى منها أو نخجل من إشباعها . فإن إشباعها — لا قمعها ولا تعديل مجراها — هو الطريق الوحيد للخلاص من إلحاحها ، إن القيود من وضع العرف فمن الخير تحطيمها ، والسعادة إنما تقوم فى اللذة الحسية العاجلة الحاضرة ، ومن الضلال أن نفكر فى المستقبل لأن مثل هذا التفكير يثير القلق فى نفوسنا ، فلنتحرر من قيودنا ونشبع لذاتنا — الحسية الحاضرة — وإلا فالتخلص من الحياة أولى !

وتمثله الرواية التى وصلتنا عنه وقد حقق فى حياته العملية مثله الأعلى على أكمل وجه ؛ والتاريخ لا ينسى حياته العابثة مع صديقته المستهترة « لايبس » Lais ولكن « أرستبوس » كان يؤكد أنه لا ينساق إلى إشباع لذاته استسلاماً لنزواته وشهواته ، بل يفعل هذا حراً مريداً ، يقول فى ذلك : « إنى أملك « لايبس » وليست « لايبس » هى التى تملكنى » ! إنه ليس عبداً لأهوائه ولا أسيراً لشهواته فهو يتحكم فيها ويسيطر عليها ولكنه لا يجد مبرراً معقولا لقمعها أو مقاومتها ، ومن ثم ينساق لإشباعها بإرادته واختياره[1] !

وبعث الأثرة فى مطلع العصر الحديث توماس هوبز — ١٦٧٩ الذى كان الأساس النظرى الذى قام عليه مذهبه فى الأخلاق هو مبدأ الأثرة أى أن من الطبيعى ومن ثم يكون من المعقول ألا يقصد كل فرد إلا لحفظ حياته وتحقيق لذاته ، ذلك أن شهوات الإنسان ورغباته تتجه بطبيعتها إلى حفظ حياته أو هذا التمادى فى حفظ الحياة تمادياً يشعر به وكأنه لذة ، بل لا يميز هوبز بين

(١) قارن سدجويك فى كتابه السالف الذكر ص ١٠٧ و ١٠٨ من النسخة العربية ومقدمتى لها ص ٢٣ .

طلب اللذة الفطرى وطلب اللذة المقصود ! ويرد الفضائل التى لا تصدر عن حب الذات إلى حالات من حب الذات. فالشفقة حزن لمصائب الآخرين مرجعه أن الإنسان يتصور أن المصيبة قد نزلت به ! ومثل هذا يقال فيما يسميه الناس فضائل ، وإذا أمعنا النظر فى الميول الاجتماعية المصحوبة عند الناس بالتفاخر والزهو ، لاحظنا أنها إما أن تنحل إلى رغبة فى تحقيق منفعة شخصية يتلقاها المرء من الآخرين — أو عن طريقهم — وإما أن ترتد إلى رغبة فى اكتساب الشهرة والمجد ، والإنسان ينفر بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس ، ومن شك فى هذا فعليه أن ينظر فيما تحتمله أعماله من دلالة على رأيه فى الناس « فهو إذا هم برحلة سلح نفسه ، وإذا أسلم للنوم عينيه أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر فى بيته أقفل دواليبه ، وهو يفعل هذا كله مع علمه بأن هناك قوانين وحراساً على الأمن مزودين بالسلاح ليثأروا من كل أذى يمسه . . . » فيما يقول هوبز نفسه ، فإذا كان ذلك كذلك فما السلوك الذى ينبغى أن يتبعه ذلك الكائن النافر بطبعه من الاجتماع بغيره وهو يعيش مع من يشبهه من الكائنات جنباً إلى جنب ؟ يجيب هوبز على هذا السؤال — وفى إجابته تعبير عن المثل الأعلى كما يتصوره — فيقول ما دامت الأفعال الإرادية عند الناس تنزع إلى حفظ حياتهم أو تهيئة لذاتهم ، فليس من المعقول أن يقصد السلوك الذى ينبغى إتباعه إلى تحقيق شىء غير حفظ حياة صاحبه وتحقيق لذاته !

ويصرح هوبز بأن ليس من العقل فى شىء أن يقوم امرؤ بأداء نصيبه فى عقد ما ، إذا ساوره شك فى أن الطرف الآخر لن يقوم بتعهداته بعد ذلك ! إن من العبث أن يتبع الفرد وحده دون غيره مبادئ الأخلاق لصالح الآخرين ، وبذلك يجعل نفسه فريسة لغيره[1] !

وهكذا أقر « هوبز » المثل الأعلى على أساس من الأنانية وتحقيق المنافع الشخصية والمصالح الذاتية [2] ، لم يستطع أن ينشىء مدرسة بعده تروج لمذهبه ، ولكنه أثار حملة معاصريه والذين أعقبوه من فلاسفة الأخلاق ، إلا أنه مكن للأثرة وسجلها فى تاريخ التفكير الأخلاق فى مطلع العصر الحديث .

---

(١) Sidgwick, Hist. of Ethics (1939) p. 164-167.

(٢) اعتقد هوبز أن الإنسان شرير بطبعه ، وجاء جان جاك روسو فاعتقد على عكسه أن الإنسان خير بطبيعته ، ولعل الأدنى إلى الصواب أن يقال إن كلا الرأيين غير صحيح ، وأن الإنسان بطبيعته على استعداد للخير والشر معا .

ولكن «توكيد الذات» بأدق معانيه لم يجد فى تاريخ التفكير الأخلاقى كله داعية أجرأ ولا أصرح من « فردريك نيتشه » — ١٩٠٠ Nietzsche فلنقف عنده قليلا :

فى القرن الماضى ثار النزاع بين دعاة المذهب الحدسى Intuitionism ومذهب المنفعة العامة Utilitarianism حول نشأة المثل العليا والمقياس الذى تقاس به خيرية الأفعال وشريتها ، ومع هذا النزاع كانا على اتفاق بالتسليم بالقيم الأخلاقية التى اصطلح عليها الناس وبشرت بها الديانات .

وفى وسط هذا الجو — الذى شغلته أكبر مدارس الأخلاقيين فى ذلك الوقت — ظهر نيتشه أول من قام بالمحاولة الجريئة التى تهدف إلى إعادة النظر فى تقويم المعايير الأخلاقية وفهم الفضائل والرذائل من جديد ، فأكد نيتشه مبدأ الأثرة وأعلى من حب الذات ، لأنه طبق فى ميادين الأخلاق النتيجة التى تلزم عن « الانتخاب الطبيعى » فى مجال التنازع من أجل البقاء ، وهى النتيجة التى أشفق من تطبيقها أتباع التطور فى إنجلترا وأتباع الوضعية فى فرنسا ودعاة المذهب الاشتراكى فى ألمانيا ، إن جرأتهم فى رفض الدين المسيحى وإنكار مبادئه قد خانتهم عندما أرادوا مسايرة لمنطقهم — أن يطبقوا قانون بقاء الاصلح فى مجال الأخلاق ، فاستمروا مخلصين للقيم الأخلاقية القديمة التى تكبر من شأن الدعة والغيرية والمشاركة الوجدانية ونحوها من الفضائل التى بشرت بها المسيحية ؛ وجاء نيتشه فجاهر فى جرأة بتطبيق نتائج التنازع على البقاء فى مجال الأخلاق . وكان « دارون » Darwin قد واصل عن غير قصد منه عمل رجال الإنسيكلوپيديا فى تقويض الأساس اللاهوتى الدينى للأخلاق الحديثة ، ولكنهم أبقوا على الأخلاق القديمة التى أصبحت تفتقر إلى أساس جديد ، فاضطلع نيتشه بهذا ورفض المساواة والمبادئ الديمقراطية لأنها تتنافى مع نظرية بقاء الأصلح ، ومكن لمبادئ القوة والكبرياء وحب الذات لتأخذ مكان الطيبة والاستخذاء وإنكار الذات[1] .

إن مبادئ الأخلاق التقليدية من وضع الدهماء وطغام الناس وهم الكثرة الغالبة ، أسختهم أخلاق السادة الذين يفرضون سلطانهم على الآخرين — من العبيد المغلوبين على أمرهم ، وتتمثل أخلاق السادة فى الاعتزاز بالقوة واحتقار الضعف واحترام القسوة والاستخفاف بالرحمة والدعة ، وحب الصراحة وكراهية الكذب والنفاق والخداع وأنصاف الحلول ، والظفر فى ميادين الكفاح وقهر

(١) W. Durant, Vie et Doctrines des Philosophes p. 435, 436

المنافسين والسير على جثثهم فى غير رفق ولا رحمة !

أما أخلاق العبيد فهى المبادئ التى بشرت بها المسيحية ؛ إذا كانت الفضيلة عند السادة تقتضى القوة والقدرة على الصراع والمغامرة والسيطرة وما يدخل فى معانيها ، اقتضت الفضيلة عند العبيد الدعة والمسالمة والتواضع والتعاطف وغيره من مثل عليا هزيلة تجعل من الضعف فضيلة ومن العجز عن الانتقام عزوفاً عن ارتكاب الشر ، ومن الخضوع الذليل طاعة ، ومن عدم القدرة على رد العدوان بالمثل صبراً ومن القصور عن تحقيق المطامح تواضعاً . . . !

إن قيم العبيد تنافى قوانين الطبيعة ، فإذا كان من الطبيعى أن ينقرض الضعيف ويبقى الأصلح ، أوجبت قيم العبيد مساعدة الضعيف والمريض وأقامت من أجلهم الملاجئ والمستشفيات ؛ وإذا كان من الطبيعى أن يرد الإنسان العدوان بمثله ، أوجبت قيم العبيد كما بشرت بها المسيحية أن يصبر على المكروه لأن احتمال الظلم خير من ارتكابه ، بل طالبته بأن يحب من أوقع به الظلم .

بهذا هدم نيتشه التصور المألوف للقيم الأخلاقية ، ثم صور مثله الأعلى فى «إرادة القوة Will to be Mighty» بهذه الإرادة يتمكن الإنسان من أن يسيطر على الآخرين ويخضعهم لسلطانه . إن حياته ينبغى أن تكون خصاماً لا هوادة فيه ، ومخاطرة ومغامرة لا تنقطع ، وألماً لا يثير فى نفسه ضيقاً ، يقول « زرادشت » : عش وسط الأخطار ، أقم مدنك على كثب من بركان فيزوف Vesuve ، أرسل سفنك إلى البحار المجهولة ، عش فى حالة حرب لا تنقطع .

إن الإنسانية تخطئ حين تهدف إلى الإبقاء على الضعاف بما تنشئ من ملاجئ ومستشفيات ، وتثوب إلى رشدها حين تجعل غايتها التسامى بالصفوة الذين يجمعون بين القوة والجمال ، ومن الضلال أن يعمد المصلحون من المفكرين إلى إصلاح الإنسانية ، حسبهم أن يبذلوا جهدهم فى تحسين نوعها بالعناية بالممتازين دون جميع أفرادها ، ومن الخطأ الاعتماد على الانتخاب الطبيعى وحده لأن الطبيعة تقاوم الشذوذ وتحابى أوساط الناس ، فتعمل على الهبوط بالممتازين إلى مصاف المتوسطين ولا ترتفع بالمتوسطين إلى مراتب الممتازين . .[1] إلخ

هذا إذن هو السوبرمان الذى تتحقق فيه خصائص المثل الأعلى عند نيتشه ؛

---

(١) قارن W.S. Sorley, Recent Tendencies in Ethics ص ١٨ وما بعدها ، والفصل الذى عقده عن «حياة نيتشه وآرائه» فى كتاب Pringle — Pattison's "Man's Places in the Cosmos"

يحتقر الغيرية أو الإيثار ، ويستخف بالرحمة والتعاطف والصبر والدعة وما إليها مما اعتبره أخلاق عبيد ، وفى هذا السوبرمان تتمثل إرادة القوة ، يحترم أنانيته ويجاهد فى فرض نفوذه على الآخرين ، ويجعل ذاته فوق كل اعتبار .

وقد صادفت هذه الفردية individuality المتطرفة هوى من نفوس الكثيرين من المحدثين ، وكان لها صداها فى الكثير من القصص والمسرحيات والأبحاث التى وضعت للتبشير بهذا الاتجاه الجديد الذى يقدم إكبار الأثرة واحتقار الإيثار ، وما صيحات المطالبة بالحقوق والمغالاة فيها يجأر بها الأفراد والجماعات والهيئات فى أيامنا الحاضرة إلا أثراً من آثار التمرد على إنكار الذات والتعبير عن توكيدها بهذا التمرد المقرون بالسعى لإشباع حاجاتها ومطالبها — ولو كان على حساب ما تقتضيه مصلحة المجموع !

حسبنا هذا بياناً للاتجاهين المتضادين فى فهم المثل الأعلى ومقوماته ، ولنعقب عليه بمناقشته :

مناقشة الاتجاهين السابقين :

فى الحق أن فى كلتا الوجهتين من النظر تطرفاً ملحوظاً قد لا يستقيم مع منطق العقل ، فإن الذين طالبوا بوأد الغرائز ومقاومة الميول قد فاتهم أن يذكروا أن الغرائز جزء من طبيعة الإنسان ، وأنها وجدت لحفظ حياة الفرد وبقاء النوع معاً ، ومن الضلال أن يحارب الإنسان طبيعته ويعمل على وأد الأداة التى تساعده على حفظ حياته وبقاء نوعه ؛ وقمع هذه الميول كثيراً ما يؤدى — فيما تقول الدراسات السيكولوجية الحديثة — إلى إضطرابات عصبية وأمراض عقلية وعقد نفسية ؛ وربما قيل فى الرد على هذا إن معالجة الغرائز المكبوتة والميول المضغوطة بالإعلاء والتسامى Sublimation قد لا يتنافى مع إنكار الذات وأفراد الغيرية ، وأن الزهدة والنساك من قديم الزمان قد وفقوا فى تحويل الطاقة المكبوتة إلى عبادة روحية تقيهم متاعب النفس ، ولا تمنعهم من مزاولة إنكار الذات ، ومباشرة الحياة التى تقوم على التضحية والإيثار — إن كان فى حياة هؤلاء النساك المعتزلين للحياة الاجتماعية ما يمكن من التضحية فى سبيل الآخرين . وبهذا يستقيم إنكار الذات مثلا أخلاقياً عالياً .

ولكن من الخير أن نعتصم بالتريث والأناة قبل الإذعان لمثل هذا الاتجاه ،

حتى مع التسليم بأن الطبيعة البشرية قد تنهزم فى مثل هذا الصراع ، بمعنى أن تتعطل الغرائز عن أداء وظيفتها بالرياضة الروحية المسرفة ، لأن مثل هذا الانتصار يقضى على الأداة التى تصون الحياة بحفظها عند الفرد وإبقائها فى النوع كله ، وما لهذا وجدت الأخلاق ؛ هذا إلى أننا لا نستريح حين نتصور العالم وقد تحول إلى دنيا لا يعيش فيها إلا الزهدة والمتصوفة والنساك ، إن كان هذا ميسوراً . . . !

وكذلك الحالات فى العواطف والوجدانات المكتسبة ، إن قمعها وقهرها دوافعها يسلب الحياة الكثير من حرارتها وتألقها ، فتجريد الحياة من العواطف والرغبات ضلال مبين ، وقد تكون الانفعالات التى تصاحب العواطف كريهة بغيضة إلى النفس ، كانفعال الغيرة والخوف ونحوهما ، ولكن النشاط الذى يعبر عن نفسه فى مثل هذه الانفعالات مفيد من الناحية الاجتماعية ؛ لم يخطئ الذين يقيمون المثل الأخلاقى الأعلى على أنقاض الغرائز والعواطف ! إن هذا هو الكمال الكسيح فيما يلوح .

إن الاتجاه إلى إنكار الذات يذكرنا بصوفية الإسلام ، إذ كان الأصل فى التصوف الإسلامى الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه — فيما يقول ابن خلدون[1] ، أو أن من مقومات التصوف الزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها . . .[2] وكف النفس عن الهوى وقطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق[3] — فيما يقول الغزالى — ومثل هذا يكاد لا يخلو منه كتاب من كتب التصوف الإسلامى .

ولكن هذه النزعة التى أوجبت على الصوفى أن ينكر ذاته ويقاوم أهواءه وشهواته حتى يلاشيها ، ويغالى فى إغفال مطالبه وحاجاته الدنيوية ، هذه النزعة — وإن كانت نواتها إسلامية فهى فى صورتها الصوفية غريبة على الإسلام ، وقد اختلف المستشرقون فى تحديد منابعها[4] . وكان أرجح الآراء فيما يبدو أنها

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٨ . (٢) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١٦ .

(٣) الغزالى : المنقذ من الضلال (طبعة المكتب العربى ص ١٢٥ — ٦) .

(٤) قيل إن مردها إلى مذاهب يونانية (كالكلبية والرواقية والأفلاطونية المحدثة ، وقيل بل إلى عناصر مسيحية ، وقيل بل إلى نزعات هندية ، والأصح ما يقوله " جولد تسيهر Goldziher ويتابعه فى هذا نيكلسون Nickolson من أنها قريبة من روح الإسلام ومذهب أهل السنة ولكنها متأثرة بالرهبانية المسيحية وغيرها من عوامل .

نزعة إسلامية متأثرة بالرهبانية المسيحية .

ليس فى الإسلام — كما يبدو فى القرآن الكريم وسنة الرسول — هذا الغلو الذى يوجب على الإنسان قتل ميوله وشهواته ، ووأد مطالبه وحاجاته ، وكراهية اللذة فى كل صورها ، بل صرح القرآن بضرورة الجمع بين الدين والدنيا ، فأباح للمؤمنين الكثير من لذاذات الحياة « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » وصرح القرآن بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله فى الحياة الدنيا إذ قال « وابتغ فيم أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . » وفى هذا التيار جرى الصحيح من أحاديث الرسول (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . . . إلخ)

فزينة الدنيا وبهجتها والتمتع باللذاذات والمشتهيات مباح فى الإسلام بشرط القصد والاعتدال وحسن النية فيما يقول أئمة الدين نفسه(١) .

أخطأ الذين أيدوا إنكار الذات وحاربوا لذات الحياة فى كل صورها ، وقد أدرك « أرسطو » هذا منذ نحو ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان ، فصرح بأن اللذة نفسها ليست شراً ، وإنما يكون الشر فى إسراف الناس فى التماسها ؛ بل جاهر أرسطو بأن الفضيلة لا تكون إلا متى اقترنت مزاولتها باللذة وخلت من العناء ؛ وأطال الحديث عن خيرية اللذات ، وعن علاقتها بالسعادة التى ينشدها الناس غاية للحياة(٢) .

ويبدو لنا أن الاتجاه إلى توكيد الذات ومهاجمة الاتجاه الغيرى فى كل صوره ينطوى على ضلال . قيل إن مذهب « نيتشه » فى « إرادة القوة » كان رجعاً لحياته التعسة ، قضى حياته يعانى ألم مرض ورائى فى جسمه ، ويقاسى صرعا فى عقله ، فالتمس مثله الأعلى فى دنيا المغامرة واقتحام الأخطار ومصارعة الأنداد والعدوان على الضعفاء وفرض سيطرته على من دونه من كائنات ، وقهر الذين يتصدون لمقاومته والسير على جثثهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

---

(١) قارن مثلا محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٧٤ — ٧٧ .

(٢) قارن كتاب Aristotle's Nicomachean Ethics, Eng. Trans. by F.H. Peters وخاصة ك ٢ ف ٢ ص ٣٧ — ٨ وكذلك ف ١٢ — ١٤ ك ٧ وك ١٠ .

إن الأخلاقية لا تستقيم مع هذا النوع من توكيد الذات ، لأنه فيما يبدو مسايرة للطبيعة الحيوانية التى يسمو الإنسان على الحيوان بالحد من طغيانها وتنظيم نزعاتها وضبط مطالبها ؛ وكيف يمكن أن يكون من الشر أن يجاهد الإنسان نفسه ويكفها عن بعض أهوائها ؟ وكيف يمكن أن يكون من مقومات الكمال الإنسانى أن يستبد القوى بالضعيف ويفرض سيطرته على من دونه ، ويضن بمساعدة محتاج أو إغاثة فقير أو مريض ؟ فى الحق أن النزعة إلى توكيد الذات على النحو الذى صوره بها دعاتها نكسة إلى شريعة الغابة وثورة على الأخلاق باسم الأخلاق .

ولعل موقف جمهرة الأخلاقيين من فلاسفة الإنجليز كان أدنى إلى العقل فى حل هذه المشكلة (١) فقد توسطوا هذين الاتجاهين وحاولوا التوفيق بين هاتين النزعتين المتطرفتين ، ومالوا — إجمالا — إلى القول بأن الطبيعة البشرية تقوم حيناً على رعاية الذات Self-regarding بكل ما تطلبه من وجوه الأنانية ، وحيناً على الاهتمام بمصالح الغير بكل ما تقتضيه من غيرية وإيثار ، والرأى عند جمهرتهم أن من قصر حياته على الاهتمام بذاته ورعاية مصالحه كان محتالا ، ومن وقف حياته على التضحية بمصالحه من أجل الآخرين كان معتوهاً ؛ ومن أوتى الحكمة وامتاز بالفضيلة برئ من هذا التطرف ، وأجرى سلوكه على الجمع بين هاتين النزعتين المتقابلتين ، وإذا كان التوفيق بينهما لا يبدو حلا لهذا الإشكال فإن علينا أن نذكر أن النفس البشرية فى وضعها الاجتماعى هى الإنسان ، لا من حيث هو فرد منعزل عن غيره من الناس بل من حيث هو فرد فى أسرة وعضو فى هيئة اجتماعية ، إنه باحتفاظه بفرديته يغرق مصالحه ورغباته ومطامحه وواجباته فيما لأسرته ومجتمعه من مصالح ورغبات ومطامح وواجبات ؛ إنه يوحد بين مطالب ذاته ومقتضيات الغاية التى يسعى لتحقيقها كعضو أمين فى مجتمعه ، وعندئذ تصبح نفسه الحقيقية أسرته أو مهنته أو مجتمعه بوجه أعم ؛ فإذا أدركنا النفس على هذا النحو كاد يختفى النزاع بين القائلين بإنكار الذات والداعين لتوكيدها ، وسيبقى هذا النزاع قائماً حتى يدرك كل من المعسكرين المختصمين أن رأى خصومه لا يخلو من حق !

---

(١) قارن Johnston, p. 192 ff.

يتأدى بنا هذا إلى القول بأن إنكار الذات لا يمكن أن يكون المثل الأخلاقى الأقصى ، لأنه — كغاية أخلاقية مطلقة — يتضمن إنكاراً للنفس الكبرى ، وهذا محال ، إنه لا يتضمن مجرد التضحية بنفس الإنسان الخاصة به فحسب ، بل ينطوى على إنكار الأسرة والدولة والدين معاً ، وليس بين القائلين بإنكار الذات من أيد هذا الرأى ، وبالغاً ما بلغ زهد الناسك وتقشفه فإنه لا ينكر الذات الكبرى ، حقيقة إن النساك قد نبذوا الأسرة واعتزلوا الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولكن هذا إنما كان منهم أداة لتهذيب الذات الدينية وتوكيدها ، وهى عندهم أصدق الذوات وأكثرها حكمة ، ومثل هذا يقال فيمن يفدى وطنه بحياته وما ملك ، إنه يؤكد ذاته القومية بالتخلى عن بعض مقومات ذاته الصغرى .

إن إنكار الذات إنكاراً مطلقاً لا يخلو من تناقض ، لأن الإنسان حين يتخلى عن كل شىء فى سبيل الله أو الوطن ، ينساق إلى هذا بدافع من شعوره بأن نفسه قد اتحدت بالله أو بالوطن ، فهو ينكر مظاهر معينة للنفس من أجل ما يراه أسمى مظاهر الذات وأجل اعتباراتها ، وهذا هو المثل الأخلاقى الأسمى فى نظره ، وهو نوع من توكيد الذات فى أجل معانيه وأنبلها ، وبهذا يكون الرجل الخير هو من يبذل كل ما فى وسعه فى تهذيب نفسه الكبرى ، سواء امتزجت بأسرته أو أمته أو دينه ، أما نفسه التى تتجلى فى مصالحه الذاتية فليست إلا جزءاً من هذه النفس الكبرى ، وهى لا تستحق الرعاية إذا اصطدمت بصالح المجموع وغالبيته .

وفى المجتمع الراقى المنظم يجد الفرد أن اهتمامه بمصالح الذات الكبرى التى تتمثل فى أسرته أو وطنه أو مجتمعه يتضمن رعايته لمصالحه الشخصية وأهوائه الذاتية ، وهكذا تندمج ذاته الفردية بذاته المتصلة بالمحيط الذى تعيش فيه ، فرداً فى أسرة أو وطن أو مجتمع ، وعندئذ يصبح صالحه قائماً فى صالح المجموع ويصبح من العبث أن يهدف المثل الأخلاقى الأعلى إلى إنكار الذات وإغفال مصالحها والاستخفاف بميولها فى سبيل المجموع ، ويصبح الأدنى إلى الصواب أن يهدف المثل الأعلى إلى توكيد الذات ورعاية مطالبها ؛ وما يستطيع زاهد أو متصوف — بالغاً ما بلغ استخفافه بمطالب الذات وحاجاتها وقد يقول بإهمال مصالح الغير الذين يعيش معهم ، فإن الناسك الذى ينبذ الزواج ويعتزل المجتمع

إنما يفعل ذلك توكيداً لذاته الدينية وإن اقتضى هذا تضحية ببعض مطالبه الخاصة .

وهكذا يهدف السلوك الأخلاقى إلى توكيد الذات المندمجة فى مجموعها ، وبهذا يعلو احترام الإنسان لواجبه موظفاً فى حكومة أو عاملا فى مصنع أو طالباً فى معهد أو عضواً فى أسرة . . . وتبدو حماقة الأفراد والهيئات التى تناصب أمتها العداء حتى تتمرد على قوانينها ، أو تندفع فى فورة جامحة إلى تحطيم منشئات أقامتها الأمة بأموال أهلها وأنشأتها لصالح أفرادها : ومرجع هذه الحماقة إلى تفرقتهم بين الذات الفردية (الصغرى) والذات الجماعية (الكبرى) ولو أدركوا أن الذات الفردية ليست إلا لبنة فى بناء لاقتضى الواجب الأسمى النظر إلى مصالح هذه الذات الفردية من خلال الذات الكبرى ، وعندئذ يقدمون على تضحية ما قد يتنافى مع صالح المجموع مؤمنين فى نفس الوقت أن فى ذلك توكيداً للذات وليس إنكاراً لها .

إذا كان الإنسان أميناً على واجبه بالمعنى الذى أسلفناه . أصبح إنكار الذات تضحية ببعض رغبات النفس السفلى فى سبيل النفس الكبرى ، وهذا من مقومات الحياة الأخلاقية ، ومن أجله قامت التربية الخلقية على تهذيب الرغبات الجامحة والميول الشاردة وإدماجها فى رغبات المجموع وميوله ، وبذلك لا يكون إنكار الذات إنكاراً للنفس الحقيقة الصادقة ، بل هو فى الواقع توكيد لها على حساب الذات الصغرى

رب معترض يقول إن هذا يغرق الفرد فى خضم المجموع ، فتنطمس فرديته ويتلاشى استقلال شخصيته ويفنى فى المحيط الذى يعيش فيه ، وهذه آية الحياة فى البيئات المنحطة ، فالقبيلة تبتلع أفرادها وتطمس معالمهم كأفراد ، فهم فى حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية مجرد نسخ لأصل واحد ، وصور صبت فى قالب لا يتغير ، وما لهذا تتجه مثل الأخلاق العليا ؛ إن التميز آية الرقى ، حتى فى المجال الفسيولوجى ، فإذا مضيت فى سلم الحيوانات والزواحف والبشر صعوداً وهبوطاً عرفت أن التشابه بين أفراد كل فصيلة يتمشى طردياً مع هبوطها إلى مراحل البدائية الأولى ، وعكسياً مع تدرجها فى سلم الرقى الحضارى ، فيقوى التشابه فى السمات حتى يعز التمييز بين الأفراد فى الحشرات والحيوانات البدائية ، ما لم يساعد الاختلاف فى الحجم على هذا التمايز ، ويبدو التميز بين الأفراد

فى الجماعات المتمدينة أوضح ما يكون ؛ ومثل هذا يقال فى المجال الأدبى ، كلما تطورت الجماعة وترقى أفرادها وضح التمايز بين شخصياتهم ، فاختلفوا فى وجوه الفكر والاعتقاد والعمل والنظر إلى الحياة بوجه أعم ، فإذا كانت هذه هى طبيعة الأمور فإن من الضلال أن تتجه المثل العليا إلى إلغاء النزعة الفردية وصب الأفراد فى قالب واحد ، وبهذا ينهدم الحل الذى قدمناه من قبل لمشكلة إنكار الذات وتوكيدها .

من المحقق أننا لم نقصد إلى شىء من هذا حين آثرنا أن يتخلى الفرد عن بعض مطالب ذاته الفردية فى سبيل ذاته المندمجة فى مجموعها ، فإن تحقق ذلك لا يحول دون قيام الفردية مع المشاركة الجماعية جنباً إلى جنب ، وهذا هو الملحوظ فى الجماعات الديمقراطية المتمدينة ، يحتفظ الفرد بفرديته واستقلال شخصيته ، يؤكد هذا استقلاله فى الرأى والاعتقاد واستجابته لمنطق عقله متى شاء وأنى أراد ، ولا يمنعه هذا كله من أن يتكفل مع أفراد جماعته عند ما يدعو الداعى إلى تكتل الجماعة ، فيبدو وكأنه يعمل بوحيها كلما اقتضى صالحها ذلك ، ومن هنا أمكن القول بأن الفردية لا يتحتم أن تقوم على الأثرة ، ولا أن تتنافى مع رعاية المجموع والحرص على مصالحه .

توفيق الطويل